

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ أَهْلِهِ وَسَلَّمَ عَلَىٰ الْجَمِيعِ

الدعوة الصالحة بالكلمة الطيبة



الحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام على إمام المتقين، وعلى آله وصحبه الغر الميامين.
وبعد:

فمع إجمال الدعوة إلى إنصاف المخالف دعوة أخرى مهمة لا تنفصل عنها، ألا وهي الدعوة إلى كريم القول في أثناء المدافعة عن الحق الذي تعتقد، ولا سيما مع الاخوة من المنتسبين إلى السنة، فقد أعلن رب العزة محبتة لأقوام، فامتدحهم بحنوهم على إخوانهم، وعطفهم عليهم، قال الله تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسُوفَ يَأْتِيَ اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيَحْبِبُهُنَّ أَذْلَلَةٍ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَىٰ الْكَافَّارِ﴾ [المائدة: 45]

فتتأمل كيف قرن إعلان المحبة بوصف الذلة على المؤمنين، قال بعض أهل التفسير : عَدَى بِ(على) وكان الظاهر أن يقال : أذلة للمؤمنين، لتضمين (أذلة) معنى العطف والحنون؛ فكانه قال : عاطفين على المؤمنين، وقيل: للتبنيه على أن ذلك حالهم مع علو طبقتهم وفضلهم.

إن وعر الأخلاق، غليظ الطياع، الشرس الفرس، الشكس اللكس، لن ينشر دعوة، ولن يقيم بين الناس سنة، بل ليس لمثل هذا طاقة بدفع طعن الطاعنين؛ فقد قيل :

عقل بلا أدب كشجاع بغير سلاح ، فأى يدافع هذا أو يحارب !؟

وما أقبح الحق يوم يكتسي ثواباً من القذاعة والبذاء! ولو لم تكن سيئة ذلك إلا صرف الناس عن الحق وصاحبه - ولا سيما إن استغل المبطل سوءاً أدب صاحب الحق في التغفير - لكفى، وإن لم يفعل فالفحش والبذاءة قل أن تنشر أو تنصر دعوة. وكم من بدعة راحت بفعل المنطق الحسن، والأدب الرفيع.

والمدافعة بالكلمة الطيبة على نقيس ذلك؛ فإن المدافعة بالكلمة الصالحة من جملة الإنفاق، كما أنها طريق ييسر للمخالف القيام بالقسط، دون أن تستفزه الخصومة.

وقد قال الله تعالى: لحامِلِ أَيْنِ الْحَقِّ وَأَصْرَحَهُ :

﴿فِيمَا رَحْمَةٌ مِّنَ اللَّهِ لِنَتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِظًا الْقَلْبَ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: 159].

لقد كان نبينا صلى الله عليه وسلم سجيج الطبع، لدن الضريبة، سبّط الخلقة، سهل الشريعة، لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً ولا بذيناً، فلا غرو أن يجتمع حوله أصحاب النقوس السوية، وكانت تلك الخلال كافية عند ذوي البصائر في الدلالة على صدقه، حتى قال قائلهم :

لَوْلَمْ تَكُنْ فِيهِ آيَاتٌ مُّبِينَةٌ كَانَ بَدَاهَتَهُ تُبَيِّنُكَ بِالْخَبَرِ

وأقيق بمن يزعم اقتداء السنة والأثر، وإذا أصخت السمع إليه وجدته قذع المنطق، لثيم الضريبة، دنيء الملكرة، خسيس الشيشنة، يسب هذا ويلعن ذاك، ويبيكث الثالث، همه أن يُضحك الناس من معارضه، أو أن يسكت مخاصمه، فإذا رأى ذلك ابتسامة المنتصر! ثم يُطربه بعد قيل الناس ما حاصله:

إِنَّهُ لَمْسَكْتَ .. طَوِيلُ الْلَّسَانِ ! ... هَنِيَّا مَرِيَّا أَنْتَ بِالْفَحْشَ أَحْذَقَ !

وقد قال الله عز وجل:

﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا أَتَيْ هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْتَزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلنَّاسَ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: 35] ،
قال ابن جرير: قل يا محمد لعبادي يقل بعضهم لبعضهم التي هي أحسن من المحاجرة والمخاطبة. ثم ساق بحسب حسن

عن الحسن البصري قوله :

"التي هي أحسن، لا يقول له مثل قوله، يقول له: يرحمك الله، يغفر الله لك"،

وقد قيل إنها نزلت في عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ شتمه رجل من العرب فهم به عمر وقيل بل أبو بكر، وهذا الذي اختاره ابن جرير هو قول الجمهور.

وقال الله تعالى: {وَإِذْ أَخْذَنَا مِيقَاتَنَا إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَإِلَيْنَا مَأْتَمِينَ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنَا} [البقرة: 38]

قال الحسن: "لين القول من الأدب الحسن الجميل، والخلق الكريم، وهو مما ارتضاه الله وأحبه" ،

وقال سبحانه: {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابَ إِلَّا بِمَا هُنَّ أَحْسَنُ إِلَيْكُمْ وَلَا يُؤْمِنُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحْدَى وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} [العنكبوت: 64]

وقال: {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ أَدْفَعُ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي يَبْيَنكَ وَبِيَتْهُ عَدَاوَةً كَانَهُ وَلِيْ حَمِيمٌ * وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍ عَظِيمٌ * وَإِمَّا يَنْزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [فصلت: 34-36]

قال: {إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ}

وانظر إلى من كانت للمؤمنين فيه الأسوة الحسنة كيف كانت حاله، روى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة -رضي الله عنه-: أن بعض الصحابة قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ادع على المشركين.

قال: "إني لم أبعث لعاناً، إنما بعثت رحمة"، ومن تأمل دعاءه صلى الله عليه وسلم على المشركين أو لعنه لهم، وجده لنازلة أو مقتضي زائد عن أصل ما هم عليه، على الرغم من استحقاقهم اللعنة بکفرهم.

وقد أورد الأثر الإمام مسلم رحمة الله تعالى في باب عنون له: "باب النهي عن لعن الدواب وغيرها" فتأمل! ثم تأمل محل المستطيل على إخوانه من الأثر والستة.

وفي الصحيحين أن طفيل بن عمرو الدوسي قدم وأصحابه على النبي: فقلوا: يا رسول الله إن دوسا عصت وأبت فادع الله عليها.

فقيل: هلكت دوس . قال: "اللهم اهد دوساً وأت بهم".

ومع ذلك يصر أناس ربيما انتسبوا إلى السنة على إقناعنا بأن هذا الطريق الذي سلكه محمد صلى الله عليه وسلم في دعوة بعض الكفار؛ لا يجدي مع إخوته المخالفين من أهل السنة!

إن من السهل أن تنشأ العبارات في قدر الخصم وذمه، ولكن لتتذكر أن مكافأتك في مقدوره، فالقدر لا يعجز عنه الصبيان، وكلك سوات ولناس ألسن!

والعامة تقول: أفلس فلان! إذا عدل عن مقارعة الحجة والمنطق، بالسب والشتم تعريضاً أو تصريحاً، وقد صدقوا؛ فمثل هذا مفلس، ووجه إفلاسه غير منحصر في افتقاره إلى الحجة، فقد سمي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أمثال هؤلاء مفسسين ولكن من وجه آخر: جاء عند مسلم من حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أتدركون ما المفلس"؟ قالوا: المفلس فيما من لا درهم له ولا متابع.

فقال صلى الله عليه وسلم : "إن المفلس من أمتى يأتي يوم القيمة بصلة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقدف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطي هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار".

وفي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها -أن يهود أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: السام عليكم.

فقالت عائشة: عليكم، ولعنكم الله، وغضب الله عليكم.

قال: مهلاً يا عائشة! عليك بالرفق ، وإياك والعنف والفحش.

قالت: أ ولم تسمع ما قالوا !

قال: أ ولم تسمعي ما قلت ؟ ردت عليهم فيستجاب لي فيهم، ولا يستجاب لهم في .

فانظر إلى ترك العنف والرفق، أي مردود جلب؟!

أيها الأخ الكريم المستقيم:

لا يكن الجاهلي ذو الإصبع العدواني خيراً منك، وقد كان فيما قال لابن عم انقضت عقدته معه، واضطرب حله، فكان يزري عليه ويسمع به:

لَوْلَا أَوَاصِرُ قُرْبَى لَسْتَ تَحْفَظُهَا وَرَهْبَةُ اللَّهِ فِي مُولَى يُعَادِينِي
إِذَا بَرَيْتَكَ بَرِيًّا لَا انجارَ لَهُ إِنِّي رَأَيْتُكَ لَا تَنْفَكَ تَبَرِّينِي
اللَّهُ يَعْلَمُنِي وَاللَّهُ يَعْلَمُكُمْ وَاللَّهُ يَجْزِي كُمْ عَنِّي وَيَجْزِي نِي

وهكذا أهل الحجج لا تستخفنهم الخصومة، بل يعقل ألسنتهم ما حباهم الله من العقل، فيمنعهم الخروج عن حد الأدب، ولا تدفعهم الإساءة لمثلها، وقد قيل: إذا خرجت من عدوك لفحة سفاهة فلا تلحقها بمثلها تلقيها؛ فنسلُ الخصوم نسلٌ مذموم... إذا اقتدحت نار الغضب ابتدأت يا حرائق القادح، أو ثق غضبك بسلسلة الحلم؛ فإنه كلب إن أفلت أتلف.

فإياك إياك لا يستفزنك صراخ من لم يرافق صاحبِ الله فيما يقول، وتذكر ما قاله الأول:

لَنْ يَدْرِكَ الْمَجَدَ أَقْوَامٍ - وَانْ كَرِمُوا - حَتَّى يَذَلُوا - وَانْ عَزَوا - لِأَقْوَامٍ

وَيُشْتَمِوا فَتْرَى الْأَلْوَانِ مَسْفَرَةً لَا خُوفَ ذُلَّ وَلَكِنْ فَضْلَ أَحَلَامٍ

وَمَا ذَاكَ عَنْ عَجَزِكُمْ غَيْرَ أَنَّنِي أَرَى أَنْ تَرَكَ الشَّرُّ لِلشَّرِّ أَدْفَعَ

.... وَمَنْ يَعْضُ الْكَلْبَ إِنْ عَضًا؟!

قيل إن الأحنف سبه رجل وهو يماشي في الطريق، فلما قرب من المنزل وقف الأحنف وقال له: يا هنا إن كان قد بقي معك شيء فهات وقله ه هنا! فإني أخاف أن يسمعك فتيان الحي فيؤذوك، ونحن لا نحب الانتصار لأنفسنا.
وإذا بغى بأغْ عليك بجهله فاقته بالمعروف لا بالمنكر

أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزة ونفخه ونفثه :

[وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي يَبْنِيكَ وَيَنْهِي عَدَاؤَهُ كَانَهُ وَلِيْ حَمِيمٌ * وَمَا يَلْقَاهَا إِلَّا
الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يَلْقَاهَا إِلَّا دُوْ حَظٌ عَظِيمٌ * وَإِمَّا يَتَرَاغَنَكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِدْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ] [فصلت: 34-36].

فتتأمل أي عاقبة وعد الذي يدفع بالحسنة، وأي حظ قسم الله له من دون الخليقة، فلا يذهبن حظك الأبالسة من الموسسين، ولا تفسدن بينك وبين أخيك الشياطين، واستعد بالله منهم، ولا تسكت عن باطل أو ترك حقاً، بل دافع، ولكن بالتي هي أحسن، فذلك والله طريق نجح المقاصد، وعنوان السعادة والفلاح، قال الإمام ابن القيم رحمة الله: "وأدبُ المرءُ عنوانُ سعادته وفلاحة، وقلةُ أدبه عنوانُ شقاوته وبواره، مما استجلب خير الدنيا والآخرة بمثل الأدب، ولا استجلب حرماتها بمثل قلة الأدب.. وتأمل أحوال كل شقي ومغتر ومدبر؛ كيف تجد قلة الأدب هي التي ساقته إلى الحرمان".

اللهم اهدنا لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عنا سيئها لا يصرف عنا
سيئها إلا أنت.

وصلی اللهم وسلم على نبینا محمد، وعلى آله وصحبہ أجمعین.

كاتب المقالة : منقول

تاريخ النشر : 05/10/2010

من موقع : موقع الشيخ محمد فرج الأصرف

رابط الموقع : www.mohammfarag.com